



خطبة صلاة الجمعة 7/6/2013 للشيخ الطبيب محمد خير الشعال, في جامع أنس بن مالك، دمشق - المالكى

(اقتصاد الأسرة في الأزمات - 1 -)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتد، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله، وصفيه وخليله، خير نبي اجتبا، هدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون، ولو كره المشركون، ولو كره من كرهه، اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم.

أمّا بعد:

عباد الله، أوصيكم ونفسي بتقوى الله تعالى، وأحثكم وإيائي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير:

قال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾

[الإسراء: 29]

وقال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: 67].

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**الاقتصاد في**

النّفقة نصف المعيشة» [الطبراني في الأوسط والبيهقي في الشعب]

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «**ما عال من اقتصد**» [أحمد والطبراني]

عنوان خطبة اليوم:

(اقتصاد الأسرة في الأزمات - 1 -)

أفرزت الأزمة التي نعيش -والتي نسأل الله كشفها بلطفه- مشكلةً اقتصادية في كثير من البيوت: فهذه أسرة خرجت من مدينتها وفقدت جميع أصولها الثابتة.. وتلك أخرجت من دارها، لكن الزوج لازال ينزل إلى عمله.. وثالثة بقيت في دارها وفقد الزوج عمله، أو جزءاً منه... وهكذا.. أرخت الشدة بظلالها المائيّة على الجميع.

وبات توفير النفقات الشهريّة الضرورية لبعض الأسر تحدّيّاً مشوباً بالتوتر والقلق، الأمر الذي أثر على الروابط العائليّة، فالأب الغاضب من قلّة ذات اليد، والأم المتألّمة من فقدِ الضروريات، والأبناء الذين لا يجدون ما يكفيهم، كل هؤلاء تتردى حالتهم النفسيّة وتفيض أسي على علاقتهم الأسرية فتزيد الشدّة والأزمة.

لذلك جاءت هذه الخطبة (اقتصاد الأسرة في الأزمات) ساعيّةً للتخفيف من وطأة الأزمة، مرشدةً إلى أفضل الطرق لاحتواء الأزمة الماليّة داخل المنزل.

وفيها نقاطٌ ستُعين على مواجهة الأزمة الماليّة داخل الأسرة، وتخفّف من وطأتها وشدّتها. أعرض لثلاث نقاطٍ في خطبة اليوم؛ لأتبعها بثلاثٍ أُخر في خطبة الأسبوع القادم - بإذن الله -.

- النقطة الأولى: التفكير بواقعيّة، دون تهويل ولا تهوين:

لا تعظّم الأمور أكثر ممّا تستحق؛ لأنّ عدم تضخيم المشكلة أمرٌ مهمٌّ في الحفاظ على التّوازن والقدرة على التفكير، بينما تضخيم المشكلة يدعك أسيراً لها بعيداً عن حلّها، واختصاصيون يقولون: (فكّر بالحلّ لا بالمشكلة).

ثمّ إنّ المؤمن موقنٌ أنّ الله تعالى كفّل له رزقه وحدّد له أجله، وموقنٌ أنّ نفساً لن تموت حتى تستوفي رزقها وأجلها، وموقنٌ أنّ الله قطع سلطان البشر عن الآجال والأرزاق، فليس لأحدٍ إليهما من سبيل.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**إِنَّ الرِّزْقَ لِيَطْلُبَ الْعَبْدَ كَمَا يَطْلُبُهُ أَجَلُهُ**» [الطبراني].

هذا اليقين يجنبه التهويل والتضخيم، ويقيه اليأس والقنوط، ويدفعه للاجتهاد والعمل.

روى القرطبي في تفسير قوله تعالى: ﴿**وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ**﴾ [الذاريات: 22] قال:

(قال الأصمعيّ: أقبلتُ ذات مرةٍ من مسجد البصرة إذ طلع أعرابي جلفٌ جافٌّ على قعود له، متقلّداً سيفه ويده قوسه، فدنا وسلّم وقال: ممّن الرجل؟ قلت من بني أصمع، قال: أنت الأصمعي؟ قلت: نعم. قال: ومن أين أقبلت؟ قلت: من موضعٍ يتلى فيه كلام الرحمن، قال: وللرحمن كلام يتلوه الآدميون؟ قلت: نعم، قال: فأتل عليّ منه شيئاً، فقرأت ﴿**وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا**﴾ إلى قوله: ﴿**وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ * وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصَرُونَ**﴾ [الذاريات: 1-22]

فقال: يا أصمعي، حسبك!! ثم قام إلى ناقته فنحراها وقطّعها بجلدها، وقال: أعني على توزيعها، ففرّقناها على مَنْ أَقْبَلَ وأدبر، وهو يقول: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾

قال الأصمعي: ثم حججْتُ مع الرَّشيد، فبينما أنا أطوف إذا أنا بصوتٍ رقيق، فالتفتُ فإذا أنا بالأعرابي، فسَلَّم عليّ وأخذ بيدي وقال: أتُلّ عليّ كلام الرحمن، وأجلسني من وراء المقام، فقرأتُ ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذُرُوءًا﴾ حتى وصلت إلى قوله تعالى: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾، فقال الأعرابي: لقد وجدنا ما وعدنا الرَّحمن حقاً، وقال: وهل غير هذا؟ قلتُ: نعم، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿فَوَرَبُّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ﴾ [الذاريات:23]، قال: فصاح الأعرابي وقال: يا سبحان الله! من الذي أغضب الجليل حتى حلف؟! ألم يصدّقوه في قوله حتى ألجؤوه إلى (اليمين؟!)

فلا يُهَوِّلَنَّ امرؤ المشكلة المالية، فَرَبُّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ تَوَلَّى أَرْزَاقَ الْعِبَادِ، وما على المرء إلا السَّعْيُ الْمُسْتَطَاع.

ولئن قلنا بعدم تضخيم المشكلة فالواجب أيضاً عدم تهوينها إلى درجة اللامبالاة، بل المطلوب بذل الجهد المكافئ وزيادة الاجتهاد في السَّعْيِ، مع التَّسْلِيمِ الْقَلْبِيِّ لِلَّهِ تَعَالَى.

– النقطة الثانية: تعاون أفراد الأسرة في مواجهة الأزمة وعدم الاستسلام لها.

فالتَّعَاوُن طِيبٌ مَاهِرٌ، يَزْرَعُ فِي النَّفْسِ التَّفَاوُلَ، وَيَنْزِعُ مِنْهَا التَّشَاؤْمَ. وَلَا يُغْلَبُ قَوْمٌ إِذَا تَعَاوَنُوا. قد يفقد الزوج عمَلَه في الأزمة فيقع في حالة من الشعور بالخرج لعدم تمكُّنه من إيفاء الأسرة حقوقها المالية.

إن تعاون أفراد الأسرة في مواجهة هذا الحُطْبُ هو السبيل الوحيد للنجاة بمركب الأسرة. ومن مظاهر التعاون في مثل هذه الحالة: أن تجلس الزوجة إلى زوجها لتشدَّ من أزره، وتساعدته في البحث عن وظيفة جديدة من خلال مشاركته في صناعة السيِّرة الذاتية، وتوزيعها على الأصدقاء، أو نشرها في مواقع التَّوْظِيفِ وصحف الإعلانات، لترفع بذلك عنه الشعور بالوحدة، وتضع نفسها معه في دائرة المسؤولية.

ومن مظاهر التعاون في مثل هذه الحالة: أن تقوم الزوجة ببعض الأعمال الإنتاجية في البيت، مثل: التصنيع بدلاً من الشراء الجاهز.

ومن مظاهر التعاون في مثل هذه الحالة: أن ينزل الأبناء القادرون على العمل إلى سوق العمل ليرفدوا واردات الأسرة.

ومن المفيد ذكره هنا أن المرء في الأزمات قد لا يجد العمل المكافئ لدراسته الجامعية أو لتدريبه الحياتي، فلا بأس أن يعمل بما يتوفر حتى يُحَصِّل ما يناسب؛ لأن الأزمة وضعٌ استثنائي، فلا يُتَصَوَّر فيها العمل بشكل اعتيادي.

ومن مظاهر التعاون في مثل هذه الحالة: إيمان الزوجين بالقدرة على مواجهة الأزمة، والعزم على خوض الحياة معاً في مختلف ظروفها، وإن نقاشهما وتشاورهما يقدِّم المزيد من الأفكار المساعدة على مواجهة الصعاب المالية.

عَقَدَ عليها منذ سنة وزفافهما بعد شهر، خلال العام المنصرم حيلَ بينه وبين بيته الواقع في منطقة اشتباكات مسلَّحة، ومؤخراً أُغْلِقَ المعمل الذي كان يديره، ففَقَدَ عَمَلَهُ! استطاع أن يستأجر داراً متواضعة للزواج، وأن يبدأ بعملٍ جديدٍ ذي مردود قليل، لكنَّ ثَمَّةَ امرأةٍ همست في أذن الزوجة أن تطلب طلاقاً قبل الزفاف؛ لأن الوضع المالي لهذا الزوج لم يعد كما كان!

إنَّ أسوأ ما تتصرفه الزوجة في محنة زوجها أن تدعه وحيداً يصارع الأهوال ويقارع النوائب، ولئن كان الحديث المحفوظ: «مَنْ نَفَسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرْبِ الدُّنْيَا نَفَسَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرْبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ، يَسِّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ» [أخرجه مسلم] لئن كان هذا الحديث للمؤمنين عامة فهو للأزواج في وقت المحن خاصّة.

ومن مظاهر التعاون في مثل هذه الحالة: تعاون الأسرة على ترشيد النفقات لتبدأ بشراء الضروريات ثم الحاجيات، ولتحدف ما استطاعت من الكماليات، وذلك وفق قاعدة: (لا تشتري ما لست مضطراً إليه حتى لا تباع ما أنت مضطرٌ إليه).

والزوجان قدوة الأبناء في هذا الترشيده، فلا يليق أن يطلق أبٌ أو أمٌ لنفسيهما العنان في النفقات، ثم إذا طلب الأولاد أمراً طبَّقوا عليهم نظريات التقشف والترشيده.

قُدِّمَ لعمر رضي الله عنه عام الرَّمَادَةِ طعامٌ فَارَةٌ، فأمرَ برفعه ولم يَطْعَمه، وأردف قائلاً: (كيف يعنيني شأنُ الرعية إذا لم يمسنني ما مسهم).

ومهما يكن من أمر فتعاون الجميع مفيد في تخفيف وطأة الأزمة، وهي النقطة الثانية في خطبة اليوم.

- أما النقطة الثالثة الأخيرة فهي: تجنّب المحاسبة الماليّة الشديدة بين الزوجين: كثيراً ما تؤدّي المعاناة من مشكلاتٍ ماديّة إلى المحاسبة بين الزوج والزوجة، فيحاسب كلٌّ منهما الآخر بسبب إنفاقٍ ما لم يكن من الضروري إنفاقه برأيه. هذه المحاسبة ربما خرجت عن حدِّ المقبول فأودّت بالعلاقة الزوجية إلى نقطة حرجة ما لم يكن الزوجان واعين. والصواب هنا التماس الأعذار والتجاوز عمّا مضى والتّوجيه للتّصرف الأمثل في قادمات الأيام. أيها الإخوة: هذه نقاط ثلاث في مواجهة المشكلة المالية داخل الأسرة، وفي الأسبوع القادم ثلاث غيرها -إن شاء الله-.

اللهم وسّع لنا أرزاقنا، وبارك لنا فيما رزقنا، واجعل في رزقنا بركة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، واجعل مع البركة بركة، واجعل مع البركة بركتين.

والحمد لله رب العالمين